الصوفية والتوكل

للاستاذ السيد محمد عيد الشافعى

الناس رجلان · رجل وقف مع حوله وقوته وغفل عن حول الله وقوته يصبح ولاهم له الا التدبير لنفسه ناسيا لقضاء الحق عليه · وهذا جدير بأن يكله الحق الى نفسه · قال تعالى (**نسوا الله فنسيهم**) ورجل خرج من حوله وقوته الى حول الله وقوته اقرارا منه بعجزه عن تدبير نفسه واكتفاء منه بقضاء الحق له ·

يصبح متوكلا على ربه ومفوضا اليه أمره · وهذا جدير بأن يكون الله حسبه قال تعالى (**ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا**) · الاول جاهل والثانى عالم عاقل · الاول جاهل غافل لوجوه : الاول هوان فى اهتمام المرء بتدبيره واختياره لنفسه اقرارا منه بمعرفة الاصلح لها · وقد يريد الانسان ماصورته خير وفيه الشر وقد يكره الانسان ما صورته شر وفيه الخير · قال تعالى : « **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون** » فدعوى معرفة الاصلح بعد ذلك البيان جهل وكيف يدعى ذلك وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول « لا أبالى أصبحت غنيا أم فقيرا فانى لا أدرى أيهما خير لى » فهل بلغ ما لم يبلغه عمر لا والله : الثانى ان فى وقوف المرء مع نفسه وغفلته عن ربه نسيان الحق له لان من نسى الله نسيه · ونسيان العبد لربه عبارة عن عمى عين بصيرته ومن طمست بصيرته فقد جهل نفسه وجهل ربه وفى ذلك شر كثير · لذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : اللهم لا تكلنى الا نفسى فانك أن تكلنى الى نفسى تقربنى من السوء وتباعدنى من الخير وانى لا أثق الا برحمتك الثالث : ان المدبر لنفسه لا يخلوا من أمرين أما أن يكون مشغولا بشيء قضاه الحق له فهو واصل اليه لا محالة · واما أن يكون مشغولا بشيء لم يقض به الحق له وذلك محال ان يصل اليه وقد قال فى ذلك صلى الله عليه وسلم « ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك · وما ليس لك فلن تناله بقوتك فانشغال العبد بعد ذلك بالتدبير لنفسه ونسيانه

لقضاء الحق له دليل غفلته وجهله نعوذ بالله من ذلك ونسأله أن لا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين

أما الثانى · فعالم عاقل لتوكله على ربه وتفويض أمره اليه · قال تعالى (**ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا**) وقد أمر الحق تبارك وتعالى نبيه بذلك فقال (**وتوكل على الله انك على الحق المبين**) ثم جعله سبحانه وتعالى شرطا فى الايمان فقال (**وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين**) والمعلق على الشيء يعدم بانعدامه · فمن لا توكل له على ربه فلا ايمان له به · والتوكل مشتق من الوكالة ، يقال وكل أمره الى فلان اذا فوضه اليه · والوكالة هى القيام بتدبير مصالح الرعية من وجه الفضل لا من وجه الوجوب · ولا يكون الوكيل وكيلا على وجه تام الا اذا اجتمع فيه أربع : الاول · أن يكون عليما حتى لا يخفى عليه شيء من أمر موكله ولا يكون ذلك على وجه صحيح الا فيمن أخبر عن نفسه فى كتابه فقال (**ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء**) الثانى · أن يكون قديرا حتى لا تغلب قدرته فيعجز عن نصرة موكله · وذلك لا يكون أيضا الا للحق القائل فى كتابه (**وكان الله على كل شيء مقتدرا**) الثالث · أن يكون رحيما حتى لا يدع شيئا يعود بالخير على موكله الا بذله ·· وذلك لا يكون الا لله تعالى القائل (**هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما**) الرابع : أن يكون هاديا حتى لا يخفى عليه حيلة ماكر يريد الشر بموكله · وهذه لا تكون الا لله وحده القائل : (**قل ان الهدى هدى الله يهدى به من يشاء**) ثم لاشك ان هذه الصفات الاربعة لا تكون على وجه الاطلاق والكمال الا لله وحده سبحانه · ولذلك كان من العقل والعلم والواجب ان لا يتخذ المرء من دون الله وكيلا ولا يفوض أمره الا اليه · فان قال قائل اذا رأيت هذه الصفات فى زيد من الناس ولو بقدر محدود أرى أن فيه الكفاية للقيام بالوكالة عنى فيما يلزم لى فلم لم أتوكل عليه ؟ فأقول · ان التوكل على غير الله فى طور التحقيق محال · ووجه كونه محالا هو أن الوكيل لابد أن يكون متصفا بما ذكرنا وهو لا يخلوا من أمرين · اما أن تكون هذه الصفات لذاته من حيث هو · واما أن تكون لله الحق قيوم السموات والارض المتجلى بأسمائه وصفاته فى مرآة امكانه ولا شك أن الاول باطل ضرورة ان الممكن لا قوام له فى ذاته اصلا فوجوده وصفاته من علم وقدرة ورحمة وارادة وغير ذلك انما هى لله تعالى خلقا وايجادا وللعبد اضافة واسنادا · فان توكلت عليه من حيث هو فقد علمت أنت انه عار من كل صفة يستحق بها أن يتوكل عليه وان توكلت عليه لانه متصف بهذه الصفات فهذه الصفات ليست له ففى الواقع ان توكل العبد حتى على غير الله كما يزعم انما هو متوكل على الله من حيث

ان الكل راجع اليه شاء العبد أن يعلم ذلك أو لم يعلم . ثم بقدر علم المرء بمولاه الحق الوكيل ويقينه فيه يكون حاله فى التوكل عليه . ولتفاوت الخلق فى العلم بربهم وتفاوتهم فى اليقين به تفاوتت درجات التوكل والمتوكلين ويمكن أن تنحصر هذه الدرجات فى ثلاث

الدرجة الاولى : ان لا يفزع المرء الا الى ربه ولا يعتمد الا عليه بحيث يكون حاله كحال الطفل مع أمه لا يعرف غيرها ولا يلجأ الا اليها وان تألم من شىء فاول لفظ ينطق به يا أماه . الا أن الطفل اذا ما ادركته أمه بتحقيق مراده سكن واطمئن وان لم تدركه به غضب وتألم وبكى فكذلك صاحب هذه المرتبة لا يخلو من اختيار مع ربه فان فعل به ربه ما تمنى اطمئن وان لم يفعل حزن وتألم وفى تألم المرء من فعل الله آفتين . الآفة الاولى . عدم الرضا بالمقدور والثانية خروج القلب من رق العبودية الخالصة لله أما الدرجة الثانية . فهى ان يعلم الانسان مقدار رحمة الله بعبده وعنايته به واحسانه اليه فيكون حاله كحال الغلام الذى يعلم مقدار شفقة أمه عليه وعنايتها به فصار لا حاجة له الى ان ينبهها الى مطالبه بل اذا سكت هو عنها فهى تطلبه وان لم يطلب منها ما فيه الخير له فهى تبدؤه وربما صاحب هذه المرتبة ترك الاهتمام بالاسباب وترك الدعاء بلسانه اكتفاء بعلم الحق به ووثوقا بفضله وكرمه كما قال خليل الله علمه بحالى يغنى عن سؤالى . فان تمكن منه الحال رضى عن كل فعل يفعله به ربه علما منه بأنه لا يفعل به الا ما هو خير له . ومن ثم كانت المرتبة الثانية أعلى واسمى من المرتبة الاولى لان المتحقق بالاولى لا يخلوا من اختيار مع ربه وربما كان ذلك الاختيار معارضا أما المتحقق بالمرتبة الثانية فلا اختيار له معه بل هو مختار لما يختاره الله ولسان حال صاحب هذه المرتبة يقول كما قال امير المؤمنين عمر رضى الله عنه « **اصبحت وما لى سرور الا فى مواقع القدر** »

أما المرتبة الثالثة : فهى أن يكون الانسان مع ربه كمثل ميت بين يدى غاسل لا حركة له ولا سكون ولا ارادة ولا اختيار وانما حركاته وسكناته وارادته واختيار للفاعل به وله . وصاحب هذه المرتبة فنى عن نفسه بموكله فغاب عن نفسه وعن توكله وسقط عنه حكم المقام وشهوده وكان توكله شهود أن الامر ما زال موكولا الى الله من قبل توكله ومن بعده . يقول « **ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا** » تقريرا للواقع وقياما بواجب العبودية لله مالك كل شىء . ومثله فى غيبته عن توكله فى حال توكله كمثل الطفل الذى يفزع الى أمه ويتعلق بها قلبه متوكلا عليها وهو غائب عن شهود ذلك أو معرفته . ولغلبة ذلك الحال على القلوب وضعف العلم بالله وقوته اختلفت أفعال المتوكلين فمنهم من غلب عليه الحال لشهوده فى وحدانية الفعل لله فترك الاسباب علما منه بأنها لا فعل لها ولا تأثير أو ظنا منه

انها تقدح فى توكله . وهذا وان كان صادقا فى حاله الا انه ناقص فى علمه . ومنهم من عرف حقيقة الامر وهم الكمل من الصوفية رضى الله عنهم فعلم ان الفعل صادرا منه سبحانه وتعالى خلقا وايجادا ومضاف الى الخلق مجازا واسنادا مشاهدا لارتباط القدرة بالمقدور متمشيا مع سنة الله فى خلقه معط لكل مرتبة من المراتب حكمها مثبت لله ما اثبته الحق لنفسه مضيف الى نفسه ما أضافه الحق اليه لا يرى الاسباب قادحة فى توكله وهذا ولا شك اكمل حالا وعلما ويدلنا على هذا التقسيم وعلى هذا التفاوت فى علم المتوكلين وأحوالهم ما حدث فى قصة غزو الشام فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهى ان الصحابة رضوان الله عليهم لما قصدوا الشام ووصلوا الى الجابية علموا أن بها طاعون فانقسموا الى قسمين : قسم قال لا ندخل على ذلك الوباء فنلقى بأيدينا الى التهلكة وقد نهانا الله عن ذلك . وقسم قال ندخل ونتوكل على الله حتى لا نكون كمن قال الله فيهم (**ألم ترى الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت**) فرجعوا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يسألونه فى ذلك فقال لا ندخل " فقال القسم المخالف لرأيه . انفر من قضاء الله يا عمر ؟ قال انما نفر من قضاء الله الى قدره . أريتم لو كان لاحدكم قطيع من غنم فهبط واديا له شعبتان احدهما مخضرة والاخرى يابسة أليس هوان نزل فى هذه انما نزل فيها بقضاء الله وان نزل فى تلك انما هو نزل فيها بقضاء الله قالوا نعم فكان ذلك دليلا على تفاوتهم فى العلم والحال معا والحكم فى الكمال ما قاله عمر رضى الله عنه لان المراد بالتوكل هو اعتماد القلب على الوكيل وحده وحيث أن الله جلت قدرته ربط الاسباب ببعضها فالوقوف مع سنته فى خلقه أولى واكرم واكمل بشرط ان يكون المتوكل على يقين كامل بأنها لا تنفع من حيث هى ولا تضر ومن علم ذلك وتحقق به استراح من هم التدبير المتعلق بالدنيا للدنيا وهو المنموم شرعا حيث ان الله تبارك وتعالى قد قام به عنه .. وكان عبدا صادقا فى عبوديته لربه مشاهدا لقربه وفضله قويا بالله عزيزا به متوكلا عليه لا يخشى فيه لومة لائم لا مضيعا لما أمر به ولا معطلا لحكمته التى لا بد أن تكون وهذا ولاشك جدير بأن يكون موصوفا بالعلم والعقل متحليا بالكمال والفضل كما أشار ابن عطاء الله السكندرى رضى الله اليه قائلا . الغافل اذا أصبح ينظر ماذا يفعل والعاقل اذا أصبح ينظر ماذا يفعل الله به وفقنا الله الى ما فيه الرشد سبحانه .

محمد عيد الشافعى